



الأديب و المّفكّر الرّاجل رَمَضان عَبْدِ الرَّحْمَنِ لَأَوْنَد ﴿ سَيِّدِ الْمَنَابِر ﴾

- الإتحاد السوفياتي يملك أكبر قوة قمع داخلية في العالم ..
- 750 ألفاً من الجنود والضباط مزودون بكل أنواع الأسلحة البرية والجوية لإسكات أصوات المطالبين بالإستقلال .
- فريقان مختلفان في فهم الغرض من البيريسترويكا : الفريق الرسمي يريد منها انقاذ النظام والفريق الآخر يريد منها تغيير النظام .
- تعاون الغرب مع غورباتشيف خطة وقائية لا تجاوب مع قيم الديمقراطية والحرية .

الحلقة الثالثة

لم يكد النظام الغورباتشيفي يعلن مبدأى البيريسترويكا والغلاسنوست حتى ظهرت مجموعات سياسية غير رسمية كثيرة وبسرعة حالت دون أن تبادر الدولة إلى تعدادها . ففي نوفمبر من عام 1987 مثلاً اعترفت صحيفة " البرافدا " بوجود ثلاثين ألفاً منها . وهذا الرقم في الحقيقة لا يمثل الواقع تماماً . وفي بداية عام 1988 م عقد " الاتحاد الديمقراطي اجتماعاً في موسكو وفي مقابل تفريقه وتمزيقه من قبل السلطات الرسمية ، ظهر حزب معارض للحزب الشيوعي الحاكم . والواقع أن أول تشكيل معارض من هذا الطراز ظهر منذ عام 1920م .

والجدير بالذكر أن توصل هذه المجموعات إلى الوعي بدورها كقوة تاريخية هو قضية زمن وحسب . وما يشاهد اليوم هو تكرار لما كان يحدث من قبل . إن اللقاء التاسع عشر للحزب قد سبق أن أقر المبدأ الذي يقول: " أن إصلاح ما يسمى تشكيل الأسعار يجب أن يؤخذ به بعد مناقشته في طول البلاد وعرضها " . كما أقر أيضاً الإيجاء بضرورة إعادة النظر في أسعار الجملة والمفرق . هذا رغم أن القرار يؤكد ضرورة أن تغيير الأسعار لا يجوز أبداً أن يحدث أي تعديل في مستوى العيش عند الجماهير . على أن تحرير الأسعار المجمدة منذ ستين عاماً لا يمكن إلا أن يقود إلى تضخم فائق للعادة . والبيريسترويكا نفسها لا يسعها أن تجترح المعجزات . ومع ذلك فإن الإصلاح لا يمكن أن يتحقق دون تحرير الأسعار . كما لا يمكن دونه تحقيق أي نجاح في ربيع الاقتصاد السوفياتي .

هذا وفي وسعنا أن نتخيل بسهولة رد الفعل عند شعب لم يمض عليه زمن طويل في حصوله على بعض حرية التعبير وتدوقها .

وباختصار فإن العضلات التي يجدر بالقادة السوفيات أن يضبطوها ليس لها حل أبداً . إذ لا يسعنا توقع تحسينات ملموسة نابعة من إصلاحات داخلية للنظام ، ذلك لأن مبدأ النظام نفسه لا يزال حياً . إن الطريقة الوحيدة الصالحة لتحرير الاقتصاد وتحقيق حالة إبداع وخلق هي في اعتماد اقتصاد السوق كاملاً غير منقوص ، موصولاً بالملكية الخاصة لأدوات الإنتاج . والطريقة الوحيدة لتضييق دور الحزب الشيوعي هي في اعتماد التعدد الحزبي . ثم أن الطريقة الوحيدة لإزالة جمود الأسعار دون تعديل مستويات العيش هي السماح بتشكيل نقابات

مستقلة حقاً. وبهذا المعنى لا يعود هناك اتحاد سوفياتي على الصورة الحالية ، كما لا يعود هناك حزب شيوعي ولا سكرتير عام ولا تعود أي حاجة إلى البيريسترويكا والغلاسنوست . وكما قال غورباتشيف لأحد الصحفيين الأميركيين : " إن الإدارة السوفياتية القائمة حالياً لا تستطيع أن تفعل غير شيء واحد هو تنمية الاشتراكية " ..

وعلى ذلك فإن القادة السوفيات لن يوافقوا على القيام بعملية انتحارية سياسية . ولما لا يكون أمامهم غير العودة إلى التجميد ، فإن في وسعهم أن يسحقوا أي بادرة ثورية على الطريقة التقليدية الستالينية المعروفة ، وأن يبحثوا مرة أخرى عن تقنيات الحرب الباردة ، وأن يستغلوا التوترات الدولية للقضاء على الاضطرابات الداخلية . والآن لا نستطيع أن ننكر ظاهرة انهيار الشرعية والنظام . ففي الاتحاد السوفياتي اليوم انفجار في ميدان الجريمة . إنه كما يقول باتين : " انفجار حقيقي " . وباكاتين هذا هو وزير الداخلية . قال ذلك في مجلة "ليتراتورناجا " . فلأول مرة منذ نهاية الحرب ، ترتفع نسبة الإجرام عن نسبة الولادة . لقد ظهرت جماعات طالبي الفدية من ذوي المخطوفين كما ظهرت المافيوزا ، وعصابات فتيان تشيع الإرهاب في مدن بكاملها ، تهاجم في بعض الأوقات مراكز الشرطة حين يعتقل واحد من أفرادها . كما ظهر تزايد مأساوي في ميدان العنف والقتل .. هذه بعض علامات التوتر الاجتماعي الذي يتزايد يوماً بعد يوم .. أما طلقات النار في القرى والمدن فقد أصبحت شيئاً عادياً في عرف الناس حتى داخل بعض شوارع العاصمة موسكو ..

يحدث هذا كله مع العلم أن احتياز الأسلحة النارية يعتبر جريمة ، فإن دوائر الشرطة تقدر بأن عدد الأسلحة النارية المنتشرة في البلاد يتراوح بين 16 و 17 مليون . وأن هذا العدد يتزايد بصورة مطردة . وقد تضاعف سعر هذا السلاح في السوق السوداء خلال العامين الأخيرين .. أما النقطة الشائعة في البلاد اليوم – وهي كما نعلم دائماً البارومتر الحقيقي للرأي العام في الاتحاد السوفياتي – فإنها تتناول موضوع الثورة القادمة خلاصتها ما يلي : " ما هي المرحلة التي ستعقب البيريسترويكا ؟ " الجواب : " إنها البيريستريكا " أي إطلاق النار .

والثابت أن يوري شتالين ، جنرال بثلاثة نجوم ، والمسؤول عن القوات الداخلية ، يتلقى في كل يوم طلبات من قبل السلطات المحلية والإقليمية ترجوه فيها إرسال جيوش لقمع عناصر الاضطرابات . والواقع أن 210 آلاف مجند على الأقل قد وزعوا في المناطق الساخنة الأكثر حساسية في آسيا الوسطى والقوقاز .. هذه الطلبات

لا تكف عن الورد كسابقتها منذ 85 سنة . ويقول الجنرال شتالين أنه لا يوجد عدد كاف من الجنود لحماية كل مقاطعة وأن انتداب قوات ضئيلة إلى هذه المقاطعات لن يكون هو الحل . إنها لا تلبث حتى تصبح فريسة سهلة للدعاية كما تصبح هدفاً حياً للطلقات النارية .. ولذلك ، وكما حدث عام 1905 م بقيت أكثر الطلبات دون جواب ..

والواقع أن السوفيات لم يشهدوا بعد " أحداً أحمرًا " في موسكو ، لكن مذبحه من هذا الطراز حدثت في تبيليسي خلال ربيع عام 1988 م انتهت بتساقط عدد كبير من الضحايا . والثابت أن تأثير مثل هذه المذبحة سيكون أضخم كثيراً لو جرت في موسكو ، أو في ليننغراد ، لكن الفرق قد جرى التعويض عنه بالقسوة الاستثنائية التي صدرت عن الوحدات الخاصة وقوى التدخل المسلح : فالقيصر مثلاً لم يستخدم الأسلحة الكيميائية ضد شعبه ..

وعلى كل حال فإن من المحتمل أن يتكرر مثل هذا الحادث الرهيب في موسكو أيضاً . ذلك لأن التظاهرات في شوارعها تزداد جرأة أكثر فأكثر ، كما أن السلطات تزداد عصبيتها أكثر فأكثر . إن الإصلاحيين الصينيين لم يترددوا في إطلاق النار على طلابهم تحت عدسات التلفزيون . فلماذا يكون رفاقهم السوفيات أكثر ذعراً من العدسات ؟

إن أقل شرارة ، من مثل إضراب يعلنه عمال سكك الحديد ، يمكن أن يتبعها انفجار كبير بسبب التوتر القائم في البلاد . الواقع أن للبيرسترويكا والغلانسنوست معنيين مختلفين . أحدهما عند الأوساط الرسمية وثانيهما عند الشعب . فبينما عينا في الأوساط الرسمية خطتين لإنقاذ النظام الذي يوشك على الانهيار فإنهما عند الشعب فرصة لتغيير النظام نفسه .

فالغرب يمكن أن يظن بأن غورباتشيف هو مصلح ليبرالي يحترق حماسة لتحسين ظروف العيش عند شعبه ، لكن الشعب في مقابل ذلك لا يرى فيه غير زعيم للحزب الشيوعي شأنه شأن الزعماء السابقين . كما لا يرى فيه غير مسؤول يقف على رأس آلة الدولة ، وأنه يتحمل مسؤولية البؤس في بلاده . وأنه سجان يجس كل القوميات داخل الامبراطورية . وكل ذلك داخل إطار الاشتراكية . وأن الضرورة الاقتصادية التي فرضت عليه القيام ببعض الإصلاحات لا يمكن أن تضمن له احساس الشعب بالعرفان بجميله المزعوم . إن فجوة في جدار السجن تبدو أمام السجين دائماً على صورة فرصة للهرب وليست عملية تحسين لنظام التهوية فيه .

في نهاية عام 1988 م كان القادة السوفييات على يقين من أن إصلاحاتهم قد فشلت ، وكانوا يستعدون لمواجهة نتائج هذا الفشل . ذلك أن بعض جوانب الإصلاحات الجريئة من مثل تحرير الأسعار وخطة مقاومة المركزية في البلاد قد جرى تعليقها . وفي شهر نيسان جرت محاولة لإعادة نص إلى قانون الجزاء سبق أن عدل ولا سيما في المادتين 70 و 190 . وهو نص يعتبر أشد قسوة من النص الذي كان يعمل به في عهد بريجنيف ضد المنشقين . هذا رغم أن المشروع قد سحب في الفترة الأخيرة لتعاد كتابته من جديد ، ومن هناك كانت مقاصد السلطات واضحة لا غموض فيها ولا ابهام .

وفوق ذلك ظهر قانون استثنائي جديد يحرم الاضرابات ، ويفرض مزيداً من القيود على التعاونيات ويقرر ضرورة زيادة قوات التدخل الداخلية . كل شيء يبدو على استعداد لمواجهة ردود الفعل المرتقبة . مع العلم أن أحداً لا يستطيع أن يعين الوقت الذي يحدث فيه الصدام ، فمهمة قمع الأحداث وسحق المعارضة تبدو الآن أكثر سهولة مما يظن .

والجدير بالذكر أن السلطات الرسمية تتصرف بعيداً عن الجيش بقوات تدخل قمعي كما يلي :

- 1 (230000 جندي مسلحين تسليحاً كاملاً وتابعين لإدارة المخابرات ك . ج . ب . وهذه القوة تمتلك دبابات وطائرات عامودية وطائرات عادية ومدفعية . والغرض منها مجابهة أي ثورة مسلحة .
- 2 (340000 جندي وضابط تابعون لوزارة الداخلية : فيها وحدات خاصة من مثل " سبتس ناز " (ثلاثون ألفاً) ورجال مظلات (سبعون ألفاً) وبحارة قناصون (فرقتان) وبعض فرق الحراس . والجميع يبلغ عددهم سبعمائة وخمسين ألف رجل . وبينما تضاعف عدد الشعب مرة واحدة منذ عام 1905 م فإن أجهزة القمع قد تضاعفت ثماني مرات على الأقل .

هذا بعض ما ورد في كتاب فلاديمير بوكوفسكي حول ما جرى ويجري في الاتحاد السوفياتي . وبوكوفسكي ليس المنشق السوفياتي الوحيد الذي يقف من نظام بلاده مثل هذا الموقف الحذر . كما أن هناك من غير السوفييات المنشقين وغير المنشقين ، ممن سبق أن أثبتنا وجهات نظرهم ، من بادر إلى رفع الصوت عالياً معتمداً على خبرته السياسية وثقافته التاريخية ومعرفته بالكثير من أسرار النظام السوفياتي . وفي رأينا أن الغرب بصورة

عامه ولا سيما في طبقاته الحاكمة لا يجهل حقيقة ما جرى ويجري في الإمبراطورية السوفياتية لكنه في الوقت نفسه يعلم أن ترك الاتحاد السوفياتي وحيداً بعد المغامرة السياسية الاجتماعية التي قام بها واستمر يكابر ويتجاهل قوانين الحياة سبعين عاماً معها سيلقي به في أحضان اليأس . فإذا وقع ذلك كان أمامه أحد الخيارات التالية :

(1) أن يواجه حرباً أهلية يتساقط بها الملايين من الضحايا . فيفقد بذلك دوره كقوة عظمى . وهذا أمر تتجنبه القيادة السوفياتية بأي ثمن .

(2) أن يدفعه اليأس من تحقيق ازدهار اقتصادي يمكنه من الحفاظ على دوره كقوة عظمى ، إلى العمل بالمثل القائل : " علي وعلى أعدائي يا رب " فيشن حرباً عالمية لا تبقى ولا تذر . وبذلك لا يغيب وحده في قبر التاريخ بل يجر الغرب كله إلى القبر نفسه .

(3) أن يعترف بالخطأ التاريخي الذي ارتكبه نظام الأعوام السبعين الماضية وأن يوافق على الالتزام بشعارات الغرب فيعلن إعادة البناء " البيريسترويكا " والمصارحة " الغلاسنوست " مهما كان في هذا الإعلان من حرج لقياداته .. ومهما كان في الالتزام بالديمقراطية والحرية الاقتصادية من خسارة لبعض الامتيازات التي كانت تتمتع بها القيادات الشيوعية .

وهكذا اختار الخيار الثالث لا سيما وأنه وجد عند الغربيين تجاوباً معه واستعداداً للإسهام في إقالة عثرته .. وتجاوب الغربيين معه لم يكن بالطبع لدواع إنسانية بل هو تدير وقائي . فالغربيون يدركون أن حالة اليأس قد تشعل حرباً لا تبقى ولا تذر . وهي حالة وقوعها لا تكلفهم خسارة المال وضياع الاقتصاد وحسب بل تكلفهم أيضاً خسارة دورهم كقوة عظمى ومن ثم خسارة وجودهم . فالإتحاد السوفياتي يملك من السلاح ما يستطيع به أن يدمر الكرة الأرضية كلها . وهكذا اختار الغربيون رغم شحهم الشديد أهون الشرين وقرروا تقديم المساعدات المالية وغير المالية ليحولوا دون شيوع اليأس في الامبراطورية السوفياتية ..

وليس هذا وحسب فالغربيون منذ بداية العهد بالرئيس غورباتشيف يعلمون حقيقة ما يجري داخل الإتحاد السوفياتي وأن ما يسمى بإعادة البناء والمصارحة عنوانان غير صادقين لحقيقة كثير من الأحداث الداخلية . ولكنهم عملاً بخططهم في تجنّب أنفسهم أهوال ومخاطر العزلة السوفياتية تجاهلوا كل خطط القمع التي اتخذها نظام غورباتشيف .

ولا عجب في ذلك فالغربيون لا يعملون في ضوء قيم مستوحاة من مثل حضارية ثم يعملون في ضوء مصالحهم القريبة والبعيدة . فهم يمدون يد المساعدة إلى الاتحاد السوفياتي في ظل أكذوبة ترددها أجهزتهم الإعلامية خوفاً من أسلحة الدمار المخزونة في الوقت نفسه الذي ينظمون فيه المذابح ويشترون ضمائر الحكام في كثير من بلدان العالم الثالث ويستبيحون نهب الشعوب الضعيفة ويحولون جاهدین دون حدوث أي تنمية جادة في العالم الثالث ..

إن ما يجري اليوم في عالم المعسكرين الرأسمالي والشيوعي هو عملية تكافل وتضامن للاحتفاظ بمكانتهما ودورهما كقوتين عظيمين . فهل تنجح هذه المحاولة فيوفق الاتحاد السوفياتي إلى إعادة البناء بفضل الأموال الغربية وتبقى الأسلحة ذات الدمار الشامل حبيسة المخازن ؟ إن المستقبل وحده هو الذي يجيب عن هذا السؤال وإن كان الحذرون المتشائمون من المنشقين السوفيات وغيرهم من خبراء المعسكر الغربي لا يتوقعون حدوث هذا النجاح مؤكدين أن حالة الانهيار الشامل واقعة في يوم عاجل أو آجل . فهي في رأيهم قدر لا سبيل إلى تجنبه ..